

الوحدة السادسة: نقد الشعر عند الفارابي.

يعد الفارابي واحداً من شراح كتاب " فن الشعر " لأرسطو والملخصين لأرائه، لكن ما يميّز ترجمته وشروحاته أنه كان مدركاً جيّداً للقضايا التي تتوافق مع الشعر اليوناني، وما يتوافق مع الشعر العربي، خاصة ما تعلق منه بالمحاكاة، إذا كان يعي أن هذا المصطلح يقترن بالشعر التمثيلي ولا ينطبق على الشعر الغنائي العربي، لذلك كان يميل إلى مصطلح التخيل.

ويرى جابر عصفور " أن الفارابي قد وصل بين ما كتبه أرسطو عن الشعر وما كتبه عن النفس ومزج بينهما مما أدى به إلى إقامة نظرية المحاكاة الأرسطية على أساس نفسي مكين، ويتجلى ذلك في أن الفارابي نظر إلى الشعر من حيث شكله وتأثيره في المتلقي على انه عملية "تخيّل" وبذلك صنع الفارابي ما لم يصنعه أرسطو نفسه"¹.

1- مفهوم الشعر /الأقاويل الشعرية عند الفارابي.

يقترن تقديم حدّ للشعر عند الفلاسفة المسلمين الشارحين لكتاب أرسطو بمصطلح التخيل والمحاكاة، فهاهو الفارابي يقدم مفهومًا للشعر بناءً على المحاكاة فيقول: "الأقاويل الشعرية هي التي تركّب من أشياء شأنها أن تخيّل في الأمر الذي فيه المخاطبة حالاً ما أو شيئاً أفضل أو أحسّ، وذلك إما جمالاً أو قبحاً أو جلالاً أو هواناً أو غير ذلك مما يشاكل كل هذه"².

يؤكد الفارابي على أن الشعر ليس نقلاً حرفياً للواقع ولا مطابقاً له، بل هو إعادة تصريف وإعادة صياغة لمعطيات هذا الواقع وتشكيله، بحيث يبدو في صورة أفضل أو أسوأ مما هو عليه، فيضيف إليه حسناً أو قبحاً أو قيمة ما من شأنها أن تجعله متجاوزاً لهذا الواقع.

والسبب الذي سوّغ للفارابي أن يقول بأن الشعر لا ينقل الواقع كما هو، أي أنه فعل تخييلي أن عملية الإبداع الشعري " تصدر عن المتخيلة الانسانية والتي تعد المحاكاة قوام عملها، بمعنى أنها تتصرف في الصور والمعاني المخترنة في المصورة والحافظة، وتعيد تركيب هذه الصور وتلك المعاني فلا تركيبها على النحو الذي كانت عليه في الواقع؛ ذلك لأنه من صميم عملها أن تعيد تركيب هذه الصور على نحو قد يشابه ما كانت عليه في الواقع أو يخالفه، فتصبح الأقاويل الشعرية تبعاً لذلك إما مخالفة للواقع أو مشابهة له (المشابهة تختلف

¹ رياض بن يوسف، ص404.

² ألفت كمال عبد العزيز، نظريات الشعر عند الفلاسفة المسلمين، ص71.

عن المطابقة) وعلى هذا توضع الأقاويل الشعرية في مقابل الأقاويل البرهانية، ذلك أن الأقاويل البرهانية على عكس الأقاويل الشعرية يشترط فيها تطابقها والواقع¹.

وعليه الأقاويل الشعرية تتسم بالكذب لعدم مطابقتها للواقع، في حين تتميز الأقاويل البرهانية بالصدق (مطابقة الواقع) ولهذا يصف الأقاويل الشعرية بأنها (كاذبة لا محالة بالكل) لأنها توقع في ذهن السامعين المحاكى للشيء بدلا من الشيء نفسه، في حين يصف الأقاويل البرهانية بأنها صاقعة بالكل.

لكن ابن سينا عكس الفارابي لا يعتبر الأقاويل الشعرية كاذبة، بل ويحذّر من مغبة الوقوع في خطأ اعتبار الشعر كذبا فقال " ولا تلتفت إلى ما يقال من أن البرهانية واجبة والجدلية ممكنة أكثرية، والخطابية ممكنة متساوية...والشعرية كاذبة ممتنعة فليس الاعتبار بذلك، حتى إذا كانت خاصية المحاكاة في الشعر هي التي جعلته يُنعت بهذه الصفة، فلا يجب أن نتجاهل ما يتعلق بنجاعته وجدواه ووظيفته السامية في أغلب الأحيان، وهذا جدير بأن لا يوصف الشعر بصفة الكذب"².

ويفرق الفارابي بين القول المغلّط والقول المحاكى، وتوضح هذه الفكرة أكثر عند حديثه عن المحاكاة والتميز بينها وبين القول المغلّط.

2- مفهوم المحاكاة والتخييل والتشبيه عند الفارابي.

يحرص الفارابي عند تقديمه لمفهوم المحاكاة على إيراد الفرق بين المحاكاة والمغالطة السوفسطائية " فالمحاكاة عند الفارابي نوع من الإيهام بشبيه الشيء، في حين أن المغالطة توهم نقيض الشيء عن أنه حقيقة، وليس الأمر كذلك " ³. وقد حاول أن يوضح التمايز بين كل من المحاكاة والمغالطة فيشرح أكثر فيقول: " ولا يظنن ظان أن المغلّط والمحاكى قول واحد، وذلك أنهما مختلفان بوجوده منها أن غرض المغلّط غير غرض المحاكى؛ إذ المغلّط هو الذي يغلط السامع إلى نقيض الشيء حتى يوهمه أن الموجود غير موجود، وأن غير الموجود موجود، فأما المحاكى للشيء فليس يوهم النقيض لكن الشبيه ويوجد نظير ذلك في الحس؛ وذلك أن الحال التي توجب إيهام الساكن أنه متحرك مثل ما يعرض لراكب السفينة عند نظره إلى الأشخاص التي هي على الشطوط، أو لمن على الأرض وقت الربيع عند نظره إلى القمر والكواكب من وراء الغيوم السريعة السير هي الحال المغلطة للحس، فأما الحال التي تعرض للنظر في المرئي والأجسام الصقيلة فهي الحال الموهمة شبيه الشيء"⁴.

1 المرجع نفسه، ص82.

2 محمد حسين الأعرجي، نظرية الشعر عند الفلاسفة الإسلاميين، ص31.

3 ألفت كمال عبد العزيز، نظريات الشعر عند الفلاسفة المسلمين، ص81، 80.

4

فالمغلط يفضي بالسامع إلى نقائص الأشياء كما يخيل له وجود أشياء وهي غير موجودة أصلاً، على عكس المحاكي الذي يقدم للإنسان شبيه الشيء وليس نقيضه، فالإيهام شبيه الشيء هو الذي يحدد خاصية الشعر التي لا تتمثل في رسم نقيض الشيء أو النقل الحرفي له، بل تتمثل في تقديم مثيلات له، وذلك من خلال إدراجه في علائق فنية تدخله عالم المحاكاة الشعرية التي تميّزت عن المغالطة والتصديق، فإنها ليست نقيضاً للصدق لأنها تتميز بمواصفات الحقيقة الشعرية"¹.

وقد أولى الفارابي المحاكاة أهمية بالغة واعتبرها قوام الشعر وجوهره، والأساس الذي تبنى عليه القصيدة، يقول: " فقوام الشعر وجوهره عند القدماء هو أن يكون قولاً مؤلفاً مما يحاكي الأمر، وأن يكون مقسوماً بأجزاء ينطق بها في أزمنة متساوية، ثم سائر ما فيه فليس بضروري في قوام جوهره، وإنما هي أشياء يصير بها الشعر أفضل. وأعظم هذين في قوام الشعر هو المحاكاة وعلم الأشياء التي بها المحاكاة، وأصغرهما الوزن"².

فالفارابي إذن أكد الفارابي على أهمية المحاكاة فجعلها أولية على الوزن في الشعر واعتبرها السمة الخاصة التي تميز الشعر عن النثر.

وما هو جدير بالذكر أن الفلاسفة المسلمين اكتسبت المحاكاة عندهم بعداً دلاليًا جديدًا ينأى عن معنى التقليد، فقد اقترنت عندهم بالتشبيه من ناحية، وبالتخييل من ناحية أخرى، فابن سينا مثلاً استخدم المحاكاة بمعنى التشبيه، فعندما يأتي بأمثلة للمحاكيات لا يأتي إلا بتشبيهات "كتشبيه العسل بالمرّة والتهوّر بالشجاعة... والشجاع بالأسد والجميل بالقمر والحواد بالبحر"³.

لكن ما يميز الفارابي عن بقية الفلاسفة أن مفهوم المحاكاة بمعنى التشبيه يتسع بحيث يشمل عملية التأليف الشعري كلاً، وهذه العملية تركز على الاستخدام الخاص والمؤثر للغة، وهذا الاستخدام الخاص للغة يعتمد بدوره على التصوير والتمثيل.

زد على ذلك أن مفهوم المحاكاة بمعنى التشبيه عند الفارابي تشير إلى علاقة الفن بالواقع؛ فالمحاكاة أو التشبيه ليست إلا تجسيدا لصورة العالم في مخيلة الشاعر، وهي صورة تتكئ على الواقع لكنها تبقى متميزة عنه⁴. وهذا ما يذهب إليه الأخضر جمعي الذي يقول "الفنان يبني عالمه في العمل الأدبي بموازاة العالم الحقيقي، فكل العلاقات التي تتحكم في

1 محمد حسين الأعرجي، نظرية الشعر عند الفلاسفة الإسلاميين، ص30، 31.

2 ألفت كمال عبد العزيز، نظريات الشعر عند الفلاسفة المسلمين، ص91.

3 ألفت كمال عبد العزيز، نظريات الشعر عند الفلاسفة المسلمين، ص84.

4 المرجع نفسه، ص94.

الواقع الأدبي من نوع الموجود الدنيوي، غير أنها عالم فني أوجدته المخيلة وعبر عنه باللغة"¹.

إذن المادة الفنية مستقاة من الواقع الدنيوي، لكن تشكل بطريقة مختلفة يلعب فيها عنصر التخيل وحسن التصوير دوراً مهماً حتى تدخل دائرة العالم الفني، وكثيراً ما كان الفارابي يلجّ على ضرورة إجادة التصوير، فلا فرق بين أن يصور الفنان فضيلة أو يصور رذيلة مادام قد أجاد التصوير في كلتا الحالتين. فما هو ملئٌ* يصور الله ويصور الشيطان فيجيد في الصورتين معاً، بل لعلّه في تصوير الشيطان أجود وأقوى، فهو فنان بهذه كما هو فنان بتلك².

إن حسن التصوير عند الفارابي يؤدي إلى حسن وقوة التأثير، فهو يثق أن الشعر إذا أجاد وأتقن فيه التصوير كان قادراً أن يفتن القارئ فتنة تلهيه عن ذات نفسه، أي أنها تصرفه عن إدراكه الواقعي، بحيث يواجه الصورة الخيالية مثلما يواجه أمراً واقعاً بل ما هو أقوى أثراً من الواقع. وهذا سر من أسرار الفنون كلها، فكثير من المتفرجين حين يشاهدون مسرحيات جيدة فتأسرهم فينسوا أنهم إزاء عالم من خلق الفنان، فيكاد أو يضحك مع من يضحك على خشبة المسرح ويكي مع من يبكي، متوهماً أنه إزاء الحوادث الجارية. فالشاعر الناجح من له قدرة التأثير على قارئه وإيهامه بأنه إزاء عالمه المتخيل³.

ويقصد الفارابي بجودة التخيل شدة التأثير التي تؤدي بالمتلقي إلى أن يهّم بفعل الشيء المخيل أو يعرض عنه متخلياً بذلك عن رؤيته. يقول الفارابي " جودة التخيل أن تنهض نفس السامع إلى طلب الشيء المخيل أو الهرب منه أو النزاع إليه أو الكراهة له، وإن لم يقع به تصديق، كما يعاف الإنسان الشيء إذا رآه يشبه ما سبيله أن يعاف في الحقيقة وإن تيقن أن الذي رآه ليس هو ذلك الشيء الذي يعاف. وتستعمل جودة التخيل عما يسخط ويرضي، وفيما يفزع ويؤمن وفيما يلين النفس وفيما يشدّها وفي سائر عوارض النفس. ويقصد بجودة التخيل أيضاً "أن يتحرك الإنسان لقبول الشيء، وينهض نحوه، وإن كان علمه بالشيء يوجب خلاف ما يخيل له فيه".

وتجدر الإشارة إلى أن الفارابي يعتقد أن التمثيل والتصوير والتشبيه هي المصطلحات المناسبة لشعرنا العربي أكثر من المحاكاة، وعليه نجد عنده الشعر = المحاكاة = التمثيل (التخيل، التصوير) = التشبيه.

¹ لخضر جمعي، ص 69.

* جون ميلتون أو ملثن (John Milton) ؛ 9 ديسمبر 8 - 1608 نوفمبر (1674 شاعر وعالم إنجليزي من القرن 17، يعرف أكثر لقصيدة «الفردوس المفقود» بالإنجليزية Paradise Lost) التي كتبها في عام 1667 أصيب في فترة لاحقة من حياته بالعمى، وكتب حول ذلك قصيدة مكونة من 14 بيتاً شعرياً. إلى جانب جيفري تشوسر وويليام شكسبير، يعتبر جون ميلتون من أبرز شعراء الأدب الإنجليزي.)

<https://ar.wikipedia.org/wiki/>

² نظرية الشعر عند الفارابي على الرابط: <https://www.hindawi.org/books/31809491/20/>

³ بنظر، نظرية الشعر عند الفارابي على الرابط: <https://www.hindawi.org/books/31809491/20/>

3- وسائل المحاكاة.

بيّن الفارابي في حديثه عن المحاكاة أن الوسيلة المتّخذة في تحقيقها تختلف من فن لآخر؛ فوسيلة المحاكاة في فن النحت مثلا تختلف عنها في فن القول الشعري، يقول: "...فإن محاكاة الأمور قد تكون بفعل، وقد تكون بقول، فالذي بفعل ضربان أحدهما أن يحاكي الإنسان بيده شيئا ما (مثل أن يعمل تمثالا يحاكي به انسانا بعينه أو شيئا غير ذلك) أو يفعل فعلا يحاكي به انسانا ما أو غير ذلك. والمحاكاة بقول هو أن يؤلف القول الذي يضمه أو يخاطب به من أمور تحاكي الشيء الذي فيه القول، وهو أن يجعل القول دالا على أمور تحاكي ذلك الشيء"¹.

ويقارن بين الشعر والرسم من حيث مادة المحاكاة فيقول " ونقول أيضا أن بين أهل هذه الصناعة وبين أهل صناعة التزييق مناسبة، وكأنهما مختلفان في مادة الصناعة ومتفقان في صورتها وفي أفعالها وأغراضها، أو نقول أن بين الفاعلين والصورتين والغرضين تشابها؛ وذلك أن موضع هذه الصناعة الأقاويل وموضع تلك الصناعة الأصباغ، وأن بين كليهما فرقا، إلا أن فعليهما جميعا التشبيه وغرضيهما إيقاع المحاكيات في أوهام الناس وحواسهم"².

فمادة الرسم إذن هي الألوان والأصباغ، ومادة الشعر الكلمات أو الأقاويل لكن كليهما يهدف إلى مبتغى واحد هو إيقاع التخيلات في أذهان الناس، ويعتمدان في ذلك على عنصر التشبيه.

4- موضوع المحاكاة عند الفارابي.

إن الفكرة السائدة لدى الفلاسفة المسلمين أن المحاكاة عندهم ليست تقليدا أو نقلا فوتوغرافيا للطبيعة، وإنما تشكيل فني جمالي لهذا الواقع، يكشف عن رؤية خاصة ومتميزة له، ويتمثل موضوع المحاكاة الشعرية عند الفارابي " في كل ما يتصل بالبشر من أحوال، أفعالهم وانفعالاتهم وسلوكهم وأحداث حياتهم وكل ما يتصل بهذه الحياة على مستوى الجسد والنفس، وباختصار يحاكي الشعر كل ما يتصل بحياة البشر من خير أو شر"³.

5- طبيعة الشعر.

¹ الأخضر جمعي، نظرية الشعر عند الفلاسفة الإسلاميين، ص66

² المرجع نفسه، ص67.

³ ألفت كمال عبد العزيز، نظريات الشعر عند الفلاسفة المسلمين، ص94.

لم يخالف الفلاسفة المسلمون أرسطو، عندما اعتبر الشعر طبيعة في النفس الإنسانية، وقوله شيء غريزي عند الإنسان. ويرى لخضر جمعي أن في هذا " إقرار بشرعية الشعر وضرورته للإنسان مادام صدى لطبعه "1.

فها هو ابن سينا يعتبر أن السبب المولد للشعر عند الإنسان شيئا أحدهما الالتذاد بالمحاكاة واستعمالها منذ الصبا، والسبب الثاني حب النفس للتأليف المتفق والألحان طبعاً، إضافة إلى حب الإنسان للألحان وانجذابه إليها، فمن هذين السببين تولدت الشعاعية وأخذت تنمو يسيراً تابعة للطباع.

ولم يخرج الفارابي عن تصور ابن سينا في توضيحه لنشأة الشعر؛ إذ يردها إلى الغريزة إضافة إلى حب الإنسان للترتيب والنظام والانسجام في كل شيء يقول "والتي أحدثت الألحان هي فطرة ما غريزية للإنسان ومركوزة فيه من أول كونه" ويقول "...فتحصل فيهم من الصنائع القياسية صناعة الشعر، لما في فطرة الإنسان من تحري الترتيب والنظام في كل شيء.

إذن خاصية الإيقاع في الشعر تعود إلى أن النفس تطلب الترتيب والانسجام في كل شيء، فكأن معايير الجمال في الفن هي نفسها قوانين عمق النفس، وعندما يحدث التطابق بين الاثنين يحدث الارتياح.

6-وظيفة الشعر عند الفارابي.

إن الغاية المرجوة من الشعر عند الفارابي لا تختلف عن سائر الفلاسفة، إذ يمكن لمن يقرأ للفارابي أن يستشف ثلاثة وظائف أو فوائد هي:

1-تحقيق المتعة واللذة:

تتحقق اللذة من الشعر باعتباره من الألحان، فاللحن كثيراً ما يحدث لذة ومتعة عند سامعه، إضافة إلى فائدة معينة طبعاً، يقول الفارابي: " الألحان بالجملة ...صنفان على مثال ما عليه كثير من سائر المحسوسات الأخرى المركبة، مثل المبصرات والتماثيل والتزاويق، فإن منها ما ألف ليلحق الحواس منه لذة فقط من غير أن يوقع في النفس شيئاً آخر، ومنها ما ألف ليلحق الحواس منه لذة فقط من غير أن يوقع في النفس شيئاً آخر، ومنها ما ألف ليفيد النفس مع اللذة شيئاً آخر من تخيلات وانفعالات، ويكون بها محاكيات أمور آخر. والصنف الأول هو قليل الغناء، والنافع منهما هو الصنف الثاني، وهي الألحان الكاملة، وهذه هي التابعة أولاً للأقويل الشعرية "2.

1 الأخضر جمعي، نظرية الشعر عند الفلاسفة الإسلاميين، صص69،68.

2 الأخضر جمعي، المرجع السابق، ص68.

2-الوظيفة التعليمية:

الشعر عند الفارابي وسيلة من وسائل تعليم العوام وتقريب المعارف النظرية والحقائق الفكرية التي يعجزون عن التوصل إليها بالبرهان، إذ كثيرا ما ينجح الشعر في تمكين هذه الأشياء النظرية الصعبة لتحصل في نفوسهم رسوما بمثالاتها¹.

للتصوير والتمثيل أهمية بالغة إذ يساعد على تقديم الأفكار المجردة والأشياء بشكل حسي ملموس، بحيث يمكن للعالمي أن يتعرف على تلك الأفكار ويفهمها ويتعلمها، إضافة إلى أن المحاكاة بالمثالات التي يقصد بها التشبيه تقوم على علاقة المقارنة بين شيئين تجمع بينهما المشابهة مما يبسر إيصال الأمر المطلوب للجمهور وشرحه وتوضيحه لهم.

3-الوظيفة التربوية الأخلاقية:

ينهض الشعر عند الفارابي بدور تربوي يتمثل في تأديب النشء وتهذيبهم، والارتقاء بهم إلى حال أفضل وذلك بغرس الفضائل حتى يصبحوا نافعين في المجتمع، فالشعر بحكم طبيعته التخيلية يملك قوة تأثير فعالة على متلقيه، فتجعله يؤثر الفعل الجميل ويتجنب الفعل القبيح².

على الشعر -حسب الفارابي- أن يحمل على عاتقه مهمة إصلاح النفس وتقويم وتوجيه فكرها نحو السعادة، وذلك عن طريق إظهار الفضائل في أحسن الصور والحث على فعلها، وتصوير الشرور والرذائل بأقبح الصور وتقبيحها والتنفير من فعلها، وقد رفض الفارابي الشعر الذي ينافي مضمونه الغايات التربوية، مثل الشعر العربي الذي يثير الغرائز والانفعالات التي تضر بالإنسان فيقدم على فعل القبيح وينحرف عن الطريق السوي³.

1 ألفت كمال عبد العزيز، المرجع السابق، ص147.

2 بنظر، ألفت كمال عبد العزيز، المرجع السابق، ص149.

3 المرجع نفسه، ص151، 152.